

صمود الفعل اللاعنفي المباشر

فاطمة هندريكس، جنوب أفريقيا

ترجمة: سيد البدوي، مصر

الساعة الآن 4:00 صباحاً في اليوم العاشر من إبحارنا على متن قارب ضمن أسطول الصمود العالمي. لقد سمعنا انفجارات تصيب قوارب أخرى، ورأينا مسيرات تشق ظلام السماء، والتوتر في ذروته ونحن نتساءل عن مصير القوارب التي تعرّضت للهجوم ومتى سيأتي دورنا.

أنا في نوبة الحراسة الليلية وأخذ استراحة قصيرة لأداء صلاة الفجر. وعلى الرغم من ارتفاع منسوب الأدرينالين، يمتلئ قلبي رهبةً من جمال السماء المرصعة بالنجوم وصوت اندفاع الأمواج وهي ترتطم بزورقنا، إذ تذكّرني الأمواج المتلاطمة بموجات المقاومة التي خاضتها الشعوب المقهورة وحلفاؤها منذ الأزل، بعضها عنيف وبعضها الآخر غير عنيف.

تعرفت لأول مرة على مفهوم المقاومة اللاعنفية خلال فترة دراستي في "معهد المدينة: مركز دراسات اللاعنف والسلام". ومع ذلك، وبصفتي امرأة جنوب أفريقية نشأت في ظلّ نظام الفصل العنصري، كانت ثمة لحظات رأيت فيها إستراتيجية اللاعنف على أنها ضعيفة، وتساءلت إن كان يمكن للتحزّب أن يتحقق في جنوب أفريقيا دون الكفاح المسلح.

كرفاق على متن الأسطول، كثيراً ما كنّا نردّد: "عندما تفشل الحكومات، يُبحر الناس." لقد كانت الحكومات والمؤسسات في معظمها ضعيفة في تدخّلاتها المادية الملموسة من أجل غزة، مكتفية في معظم الأحيان بخطابات الإدانة وأن [غزة] "في البال وفي الصلوات."

في السنوات الأخيرة، تعرّزت قناعتي بأن العمل المباشر اللاعنف فعّال من الناحية الإستراتيجية، لكنه صعب التنفيذ. قد يصف البعض اللاعنف بأنه سلمي، لكنه في الحقيقة أحد أكثر الأساليب فعاليةً واختباراً لقدرتنا على مقاومة الظلم. وبذا، فإن اللاعنف بعيد كلّ البعد عن كونه مخرجاً سهلاً أو وسيلة ضعيفة للنضال، كما أتعلّم على متن هذا الأسطول.

إن هذا هو الأسطول 38 المتّجه إلى غزة، والذي يهدف إلى كسر الحصار غير القانوني وغير الأخلاقي، وهو الأكبر

والأكثر تاريخية حتى اللحظة. وهو يحشد الاهتمام حول الحاجة الملحة لاتخاذ إجراءات لفتح ممرٍ بحري مستدام لإيصال المساعدات الإنسانية إلى الشعب الفلسطيني في غزة.

ونظراً لجرائم الحرب التي ارتكبتها سلطات الاحتلال بحق أساطيل سابقة، وعدوانها الحالي على أسطولنا في الوقت الفعلي، أتذكرُ حديثي مع عائشة واحد، وهي محامية ومراسلة قانونية من جنوب أفريقيا تمارس عملها في جنوب أفريقيا ولاهاي. وعندما سألتها، أكدت لي مجدداً وأوضحت أن أسطول الصمود العالمي يتمتع بالحماية بموجب القانون الدولي:

"وفقاً للقانون الدولي، فإن مهمة الأسطول هي مهمة إنسانية مدنية ولاعنفية وقانونية بالكامل. إن الحصار 'الإسرائيلي'، المصمم لتجوع شعبٍ بأكمله، يُعدُّ غير قانوني بموجب قانون الأيرالية (قانون البحار الدولي). وللأسطول حقُّ المرور الإنساني استناداً إلى أن سكَّان غزة يخضعون لسلطة احتلال، ولهم الحقُّ في تلقِّي المساعدات. وهذا يمنح الأسطول حقَّ العبور الحرَّ عبر المياه الدولية، وهو التزام أكدته محكمة العدل الدولية التي سبق أن قضت بأن 'إسرائيل مُلزَمة' بالسماح بدخول المساعدات إلى غزة دون قيد أو شرط. وقد تحرَّك عدد من المحامين الدوليين والأكاديميين والخبراء القانونيين وعلماء الإبادة الجماعية لدعم هذه المبادرة القانونية. فضلاً عن ذلك، فإن تأكيد اللجنة الدولية المستقلة للتحقيق التابعة للأمم المتحدة أن 'إسرائيل' ارتكبت إبادة جماعية ضدَّ الفلسطينيين في قطاع غزة يُلزم جميع الدول بالوفاء بالتزاماتها القانونية بموجب القانون الدولي. في حالة الإبادة الجماعية، تتحمَّل الدول التزاماً إزاء الجميع *erga omnes*، وهو التزام تجاه المجتمع الدولي ككلِّ، لتسهيل حماية حقوق الإنسان، والذي يشمل في هذه الحالة فتح الممرات الإنسانية."

وعلى الرغم من هذا الإطار القانوني الدولي، يُوصف المشاركون في أسطول الصمود العالمي (من قبل "إسرائيل") بـ"الإرهابيين". تهدف هذه الحملة الدعائية (هسباراه) إلى خلق أساس خاطئ لمزيد من الإجراءات العدوانية تجاه المشاركين في الأسطول، سواء في الماضي أو الحاضر. ومع ذلك، فإن هذا النوع من السلوك ليس جديداً على الحركات اللاعنفية، إذ شهدناه في حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة ومسيرة العودة الكبرى الفلسطينية.

بينما كنَّا نبحر في "أسطول الشعب"، أكدَّ التدريب الإلزامي على اللاعنف الذي تلقَّيناه في تونس على يد مدربي أسطول الصمود العالمي أن اللاعنف هو أسلوب ديناميكي للعمل وليس تجنباً للصراع. وأنا شخصياً أشهد على كثافة التعبئة والتنظيم العالميين باعتبارهما فعلاً مكثفاً وحيوياً وليس سلبياً.

أثناء تدريبنا في تونس، شارك أحد المدربين تاريخ مهمَّات الأساطيل التي هدفت إلى كسر حصار "إسرائيل" غير القانوني، وكان من المؤثر الالتقاء بأولئك الذين شاركوا في مهمَّات الأسطول السابقة والاستماع إلى شهاداتهم، بما في ذلك ما حدث على متن سفينة "مافي مرمرة" في سنة 2010، عندما قتل جنود الاحتلال "الإسرائيلي" تسعة ناشطين أثناء اعتراضهم السفينة في المياه الدولية.

لقد تضمّن تدريبنا كذلك أمثلة على أعمال اللاعنّف التي قدّمها رفاق من مختلف أنحاء العالم، بما في ذلك أمثلة تاريخية من حركة الحقوق المدنية في أمريكا، ومسيرة النساء في جنوب أفريقيا في العام 1956، واحتجاجات النساء التركيات اللواتي تمّ استبعادهنّ من الأماكن الرسمية بسبب ارتداء الحجاب، والاحتجاجات المناهضة للحكومة في المكسيك.

يشمل العمل الجماعي للأسطول عبر الحركات والدول مشاركة جماهيرية واسعة، ويعدّ مثالاً بارزاً على التعبئة اللاعنفية، مصحوباً بدعوات المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات. إنه حركة قائمة على مقاومة إستراتيجية حصار واحتلال غير قانونيين. ويتطلّب العمل المباشر اللاعنفي للأسطول المتّجه إلى غزة قوةً وصموداً. وهو شكل من أشكال المقاومة الفعّالة لعقود من الظلم الناتج عن حصار بحري وبرّي وجوّي غير قانوني. وهو بعيد كل البعد عن كونه فعلاً سلبياً أو رمزياً أو شكلياً.

إذا سألي أحدهم عن مدى صعوبة تطبيق اللاعنّف كإستراتيجية للمقاومة، سيكون ردّي أنه صعب لكنه ضروري، وذلك نظراً لتجاهل قوة الاحتلال التام لقدسية الحياة البشرية. إن ممارسة اللاعنّف تتطلب صموداً كبيراً في مواجهة الشرّ الإبادي والاحتلال العنيف. وبوصفنا نشطاء عمل إنساني في مهمّة أمل وتضامن مع الشعب الفلسطيني في غزة، فإن اللاعنّف هو وسيلتنا للمقاومة ولغة حبّنا

